صورة الكورد السياسية والتمثل الايديولوجي في الرواية العربية في العراق

د.سعيد عبد الهادي المرهج هديل حسام الدين أحمد
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات - قسم اللغة العربية

الخلاصة
أن الروايات التي تناولناها، منها ما كانت بفكر ايديولوجي وسياسي صرف، حمل صورة سلبية للكورد دون أي محاولة للفهم والتعاطف والفصل بين السياسة والشعب، إذ كانت الرواية بقضها وقضيضها تمثلاً سلبياً وصورة مشوهة، وكأنها لسان السُلطة السابقة الذي تتحدث بأفكارها، ومنها: (رؤوس الحرية المكيسة وثلاثاء الاحزان السعيدة لـجاسم الرصيف، وتحت سماء الكلاب لصلاح صلاح). أما ما تبقى من الروايات (الحياة لحظة لسلام ابراهيم، وليل البلاد لجنان جاسم حلاوي، والضلع لحميد العقابي)، فهي روايات حوت مشهداً يحمل صورة سلبية ضمن صور عديدة أُخرى اجتماعية، بعضها إيجابي، ويمكن القول إنها روايات بنفس حيادي. ويمكننا القول إنه ليست ثمة مشكلة حقيقة بين الكورد والعرب. وما موجود هو مفتعل بفعل السياسة التي تعود للسُلطات وأحزابها وبما يخدم مصالحهم.

The political image of Kurds and ideological representation in the Arab novel in Iraq

Dr. Saeed Abdulhadi Al Marhij Hadeel Husamuldeen Ahmed
University of Baghdad - College of Education for Women - Arabic language Dept.

Abstract
The novels that we have addressed in the research, Including those with the ideological and political ideology, It's carry a negative image for the Kurds without any attempt to understand, empathy and the separation between politics and the people, The novels were deformation of the image, Like tongue of the former authority which speaks their ideas, Such as (Freedom heads bagged, Happy sorrows Tuesdays for Jassim Alrassif, and Under the dogs skies for Salah Salah). The rest of novels (Life is a moment for Salam Ibrahim, The country night for Jassim Halawi, The rib for Hameed Aleqabi). These are novels contained a scene carries a negative image among many other social images, some positive, and can be described as neutral novels. We can say that there is not a real problem between the Kurds and the Arabs, and what exists is artificially by the policy belonging to the authorities and their parties, in order to serve their interests.

إن السياسة هي المجال الاوسع الذي تتمثل فيه الايديولوجيا، والتي تتمظهر بصورة جلية وكبيرة في الحقل السياسي أكثر من المجالات الأخرى، فالسياسة أحد أبعاد الايديولوجيا المهمة. إذ تؤدي دوراً رئيساً في تكوين الانظمة السياسية، وتعمل على تشكلها ودعمها وتأييدها، فضلاً عن ما تقدمه من دور في تشكل احكامنا على هذه الانظمة[١].

وتعرف السياسة بأنها: "علمُ حكم الدول، وقيل إنها فن حكم المجتمعات الإنسانية وهناك من عرفها على أنها علم السُلطة"[٢].

اما السُلطة: فهي علاقة قائمة على أساس الرئيس والمرؤوس، تكون بين شخصين أو عدة أشخاص، وهي السيطرة على فرد أو مجموعة كما هو الحال بين الشعب والحكومة وقد تكون السُلطة لفظاً مرادفاً للعنف، فتعمل على إجبار الناس بالقوة على فعل أشياء قد لا يرغبون في فعلها. ومن صور السُلطة في أي مجتمع، السيطرة التي تمارسها الطبقات الاجتماعية بعضها على بعض، التي تساعد على إرساء نوع من النظام الاجتماعي، ويمكن أن تُمارس السُلطة بشكل فردي أو جماعي من قبل الدولة بعدّها تنظيماً سياسياً من واجباته تنظيم وحماية أفراد المجتمع وتوفير الأمن لهم[٣].

ومن هذا نفهم أن الدولة هي عبارة عن مجموعة من الناس أو الافراد تستقر في مكان محدد، مكونة مجتمعاً مختلف الطبقات والهويات والآراء والاتجاهات والديانات، وتكون السلطة بيد أحد الأفرد او جماعة معينة منهم، توزع السلطة فيما بين أفرادها.

ولكي تستطيع الدولة فرض سلطتها لابد من اجراءات تحكم بها عقول الناس وتسيطر عليها، ومنها الآيديولوجيا، فهي أحد العوامل التي تستطيع الدولة بها فرض سيطرتها على افراد المجتمع.

إن كلمة دولة أو مجتمع، هي مجرد مسميات عامة لا تعطي المعنى الحقيقي أو الواقعي للكلمة، إذ إنها تسمية تطلقها أي جماعة على نفسها متى ما اتفق أفرادها فيما بينهم، وبها يحددون لانفسهم الحق بالحكم واحتكاره ويكتسبون شرعية لممارسة العنف والحصول على الفوائد والمكاسب، ولما كانت السُلطة تعني القوة المُهيمنة أو سيطرة فئة معينة، فتحتكر هذه الفئة حق السُلطة وتمارسه على المجتمع كيفما تريد، وقد تكون مقبولة أو غير مقبولة من قبل الجماعات المنضوية، ولمنع المعارضة وعدم القبول، لا بد من اضفاء صفة الشرعية على جميع أعمالها وممارساتها، وجعلها مقبولة في عرف المجتمع، حتى وإن كانت سيئة، هنا يأتي دور الايديولوجيا والايديولوجيين[٤].

من هنا نرى أن الايديولوجيا تعمل على تقديم رؤية يتم من خلالها النظر الى العالم وتفسيره وفهمه، فتعمل على التحكم بنظرة الناس لما حولهم، ومن معانيها السياسية أنها تمثل أفكار الطبقة الحاكمة في المجتمع أو الافكار التي تعود لنظام سياسي معين، والتي تضمن الحصول على الشرعية والقبول لكل ما يفعلونه في المجتمع[٥].

والايديولوجيا السياسية تعبير عن القيم الايجابية عند المتحدث، في حين يكون الخصم حاملاً لكل المعاني السلبية، وهذا حال سُلطة الدولة، تكون هي صاحبة الصورة عالية الجودة، وعلى العكس منها يكون الخصم بصورة رديئة، وهذا تفكير وهمي يُفرض على المجتمع في سبيل المصلحة، لكون الدولة تسعى دوماً لاستمالة الناس وإقناعهم، والحصول على أكثر عدد من المؤيدين، فيصبح الشعب مجرد صفحات بيضاء يُدون فيها ماتريده السُلطة، مثل طفل يتلقى ما يمليه عليه من هو أكبر وأقوى، دون أن تكون له ردة فعل رافضة، وتكون بمثابة العقل المتحكم بالجسد الممثل بالناس. وأن كل أنظمة القوة تكتسب ما تريد من قبول وسيطرة وشرعية من خلال ما يسميه (التوسير) أجهزة الدولة الايديولوجية[٦].

يذكر التوسير أن للايديولوجيا وجوداً مادياً، وهذه المادية تتحقق من خلال ما يُسمى باجهزة الدولة الايديولوجية، التي لها دور كبير ومؤثر في تكوين وعي الافراد في المجتمع[٧]. ويقدم نوعين من أجهزة الدولة، أحدهما، أجهزة الدولة القمعية، والاخرى أجهزة الدولة الايديولوجية. الاجهزة القمعية تشير الى جهاز الدولة المعني بالعنف؛ منها: الحكومة، الجيش، الشرطة، المحاكم، السجن. إذ تعتمد على القوة في فرض سيطرتها وسلطتها، وهي يد السُلطة التي تمارس من خلالها الهيمنة والتسلط، مُتخذة من العنف والقوة والقمع المكشوف وسيلة لفرض السيطرة على المجتمع بشرعية تنضوي تحت مُسمى القوانين الخاصة بالعقاب والجزاء.

اما اجهزة الدولة الايديولوجية فهي الاخرى تُمارس عنفاً وقوة، لكن بشكل مقنع وبأدوات بعيدة عن تلك التي تُستخدم في الاجهزة القمعية، متخذة من الهيئات والمؤسسات واقعاً يخفي خلفه حقيقة ما تمارسه من دور ايديولوجي مؤثر؛ منها: الجهاز الديني، المدرسي، العائلي، القانوني، الاعلامي، النقابي، الثقافي. كل هذه الاجهزة هي أيضاً أداة بيد السُلطة لفرض هيمنتها لكن بصورة مبطنة وغير ظاهرة[٨].

وثمة فرق أساسي يحدده التوسير بين الجهازين، (القمعي والايديولوجي)، وهو إن الجهاز القمعي يشتغل بالعنف، في حين أن الجهاز الاخر يشتغل بالايديولوجيا، وأن هذه الاجهزة تتفق بكونها تشتغل بالعنف والايديولوجيا في وقت واحد، إذ إن الاجهزة القمعية تعمل رئيسياً بالعنف، وثانوياً بالايديولوجيا، أما الأجهزة الايديولوجية فعلى العكس، عملها رئيسياً بالايديولوجيا وثانوياً بالعنف[٩].

وإذا ما أردنا تطبيق أو مقارنة الأجهزة التي حددها التوسير على واقع السلطة في العراق، سنلحظ أن المجتمع كان مؤدلجاً بفكر النظام، الذي جعل، بطريقة او بأخرى، مؤسسات الدولة في خدمة أفكاره، حتى المؤسسات التعليمية منها، اذ إن الهدف كان اقناع الرأي العام بشرعية هذا النظام رغم كل ما ارتكبه من ظلم، متخذا من ايديولوجيا القوة والعنف طريقاً لضمان استمراريته في الحكم وإخضاع الناس له. والمُلفت للنظر أن كل حكومة وصلت للحكم بالقوة وعلى دم من سبقتها، تكون علاقتها مع الشعب دائمة التوتر، تفتقر للديمقراطية في الحوار والتعامل، قائمة على مبدأ الهيمنة، فلم يكن الشعب يوما صاحب القرار، إلا في المرحلة الاخيرة (مابعد السقوط)، إذا اعتبرنا أن نوعاً من الحرية والديمقراطية قد مورس بالشكل الصحيح. وإذا ما أردنا التوقف عند طبيعة العلاقة بين الكورد، كمكون من مكونات المجتمع العراقي، فليس ثمة اختلاف في المعاملة.

وربما ما ميّز حكومة البعث في العراق (بعد ١٩٦٨ حتى ٢٠٠٣) رفعها للشعار القومي (أُمة عربية واحدة) غاضة بصرها عن الاطياف الأخرى غير العربية، المشاركة للقومية العربية في الارض، إذ عملت على أدلجة المجتمع بهذه الفكرة، مما يجعله رافضاً لأي فكر آخر غير عربي، وسعت الى دمج القوميات غير العربية بالعربية، ومنها الكوردية والتركمانية، مُحاولة إذابتها في طيات العروبة، وإن الدعوة المستمرة الى تبني شعار العروبة وتحقيقه على أرض الواقع، جعل الكورد مدفوعين نحو قوميتهم وتنمية الأحساس بالقومية والهوية، وأصر الكورد من جانبهم على مفهوم الاكراداياتي[١٠].

وعدَ البعض أنه من الاخطاء التعصبية، أن الدساتير العراقية نصت على أن العراق جزء من الأمة العربية والوطن العربي، والشعب العراقي جزء من الشعب العربي، وفي الوقت نفسه تضمنت مواد تشير الى أن العراق مكون من قوميتين رئيسيتين، (العربية والكوردية). ثمة تناقض هنا، فكون العراق وشعبه جزءاً من الامة العربية، هذا يشترط وجود العنصر العربي، وبهذا فإن أي عنصر غير عربي هو بالضرورة سيكون جزءاً من الأمة العربية، أو أنه يُصنف على أنه ليس عراقياً، وهذا منافياً للحقيقة، فلا الكورد عرباً ولا جزءاً من الأمة العربية[١١].

والقضية الكوردية أو المشكلة الكوردية، كما يسميها البعض، قديمة تمتد بجذورها الى حقبة الاحتلال العثماني والحرب العالمية الأولى، وحقبة الانتداب البرطاني، وتكوين الدولة العراقية. فقد كان كل من العرب والكورد جزءاً من رعايا

الامبروطورية العثمانية، ذات التعدد الاثني والثقافي والديني، ولم تنجح مساعي أيٌ منهما في إقامة دولة قومية خاصة ومستقلة في حين أن العرب نجحوا في إقامة دول اقليمية مستقلة خاصة بهم، برغم فشل تحقيق الحلم الأكبر بوطن واحد، بينما الكورد فشلوا في تحقيق حلم الدولة الاقليمية المستقلة، وذلك لعدة عوامل، منها: عامل التقسيم، فلقد قُسمت كوردستان مرتين، الاولى في العهد العثماني، بعد الاتفاق بين العثمانيين والجانب الايراني. أما الثانية فكانت في عهد الاحتلال البرطاني وفرض الانتداب وتكوين دولة العراق وترسيم حدودها وخريطتها. حينها ضُمت كوردستان الجنوبية قسراً الى العراق، والشمالية الى تركيا، وبهذا عملت برطانيا الى ضم الكورد دستورياً ورسمياً الى الدولة العراقية منذ تأسيسها، ومنذ تلك الحقبة والكورد كشعب يعاني أزمة، هل هو جزء من العراق المرسوم بفعل بريطاني، أم انهم شعب ينعم بخصوصية الهوية والثقافة والارض، له كيانه المستقل، كيانا ليس جزءاً من الوطن العربي ولا من العراق التاريخي والجغرافي، عراق ما قبل الاحتلال والانتداب البريطاني[١٢].

سعت بريطانيا الى جمع عدد من الاطياف المختلفة دينياً وطائفياً وقومياً في وطن واحد، محاولة إيجاد ايديولوجيا جامعة لهم، لكنها فشلت في الوصول الى خطاب وفكر جامع لما هو مختلف، ولم تجد ايديولوجيا واحدة لعراق واحد، وقد قصدت دوماً أن تعزز الشعور بالظلم لدى الكورد، مانعة أي تقارب ممكن أن يجمع العرب والكورد، وجعل السلاح لغة الدفاع بين الطرفين[١٣].

وبقي العراق منذ الانتداب وتكوين الحكومة الملكية، يفتقر لمناخ موحد يجمع كل مكونات المجتمع العراقي، ولم تستطع أي من الحكومات اللاحقة أن توحدهم وتؤلف بينهم، أو تصنع خطاباً جامعاً لهم.

في مذكرة كتبها الملك فيصل قُبيل وفاته عام ١٩٣٣، أشار فيها إلى حالة الشعب العراقي في مدة حكمه: "اقول وقلبي ملآن أسى، إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي، بل توجد كتل بشرية خالية من أية فكرة وطنية، متشبعة بتقاليد واباطيل دينية، لا يجمع بينهما جامع حتى الان، ... فنحن نرى والحالة هذه، أن نشكل من هذه الكتل شعب (أمة) نهذبه وندربه ونعلمه..."[١٤].

في الحقيقة رغم كل الاختلاف الموجود بين مكونات الشعب العراقي، الا أن الحكومات وسُلطاتها كان لها دور الأكبر في تحويل هذا الاختلاف الى عامل نزاع وتفرقة وعنصرية، وكانت سبباً في عدم توحد هذا الشعب بشكل او بآخر، مستغلة كل الظروف الداعمة للتفرقة، فابقاء الشعب في حالة صراع مستمر وغياب المصلحة الوطنية، يجعل كل فئة لا تهتم سوى بمصالحها الخاصة، ويبعدهم عن كل ما يتعلق بالسُلطة وافعالها في المجتمع، وخير دليل القضية الكوردية التي أسهم كل من العرب والكورد في عدم حلها، كمسؤولين وليس كشعوب.

ومن الطبيعي أن يتأثر المجتمع بكل ما يجري على الساحة العراقية السياسية، ويمتد التأثير ليشمل كل الصنوف المجتمعية، البسيط منه والمعقد والمثقف والجاهل، واذا ماتوقفنا عند المثقف وكيفية تأثره بالسُلطة، كمكون من مكونات المجتمع العراقي، فلا بد من أن نقف اولاً عند طبيعية العلاقة التي تجمع المثقف مع السُلطة.

إن العلاقة بين السُلطة والمثقف، علاقة جدلية محكومة بعوامل عدة، فالسُلطة كانت دوماً منشغلة بكيفية السيطرة على المجتمع، والحصول على المكاسب والمنافع لذاتها، وهذا أحد الأسباب التي جعلتها لا تُكوّن علاقات جيدة مع المجتمع بمختلف مكوناته ومنها المثقف، لذلك نجد العلاقة بينهم في تنافر دائم، وهذا متولد من الايديولوجيا التي يتبعها كل طرف، فالايديولوجيا المتبناة من السُلطة تقوم على أساس القوة والسيطرة وارغام المثقفين على الرضوخ والخضوع اليها، في حين يعتمد المثقف على الثقافة والمعرفة، كونه يعكس الصورة الفكرية للمجتمع، ويعمل على إنتاج طرق معرفية تُشكّل نموذجاً ثقافياً، تجعله لا يقبل بالصيغ والأفكار السيئة ويرفض التأكيد الأعمى لما يريده الأقوياء وما يقولونه، ويجب أن يكون هذا نابعاً من رغبة صادقة في نفسه وليس لمجرد الرفض[١٥].

وبرغم التعارض بين ايديولوجيا السُلطة والمثقف، الا أن السُلطة تسعى أحيانا الى خداع المثقف، وذلك بأن تتظاهر بالتخلي عن ايديولوجيتها التي تتبناها من أجل إقناع المثقف بعدم معارضة السُلطة فكرياً، والعمل على دعمها وتسخير فكره خدمة لها، وبهذا تحصل على منفعة كبيرة بجعل المثقف في صفها، ولساناً من ألسنتها الناطقة بما تريد، وأداة تستغلها السُلطة بالسيطرة على الجماهير، ونشر ايديولوجيتها بينهم، ومع انتهاء منفعة السُلطة من هذا المثقف ستتخلى عنه وتعود لممارسة ايديولوجيتها ضده، وبهذا يصبح المثقف في مفترق الطريق، خسر فكره الخاص من أجل تسويغ فكر السُلطة، التي بدورها تخلت عنه وعن فكره بعد انتهاء الوقت المحدد لاستغلال هذا المثقف، كأداة منتجة للمعرفة، وتسخير هذه المعرفة في مصلحة السُلطة، لتتركه مجرداً من ذاته، ووعيه وفي الوقت نفسه مجردا من الوعي الذي فرضته السُلطة عليه او جعلته يتبناه[١٦].

إن العلاقة بين المثقف والسلطة، سواء أكان المثقف ضد السُلطة أم معها، نجدها واضحة في مجتمعنا، إذ لدينا نخبة من الكُتاب منهم من رضي أن يكون قلمه صوت السُلطة ولسانها الأمين سواء بقناعة منه بفكرها، أو كونه مخدوعا بها، ومنهم من فضل عدم الرضوخ، متمسكا بوعيه وفكره، لم تستطع السُلطة خداعه، حتى وإن اضطر الى البحث عن وطن لقلمه، ليكتب بحرية دون تسلط وقيد، وفيما يتعلق بموضوع بحثنا سنجد أن بعض الكُتاب اتفقت ايديولوجيته مع ايديولوجيا السُلطة، وأخذت أقلامهم تُدون برؤية النظام وفكره، فجعلوا الكورد عدواً في كتاباتهم، إذ نجد كل ما هو سلبي يُذكر، ولا وجود لوجه ايجابي.

انقسمت الرواية العراقية نتيجة لكل الاحداث التي شهدها العراق، والتي لم تكن الرواية بمنأى عنها بل جسدتها وقدمت صوراً عديدة لها، الى عدة أصناف، منها:

١. نص مكتوب في ظل السُلطة وبرعايتها، هذا النص يمثل فكر السُلطة ويدعمها.
٢. نص مكتوب في ظل السُلطة لكنه يلجأ الى الرمز والغموض فيما يطرح، مُبتعدا عن معاناة المجتمع.
٣. أما النص الآخر، فهو نص مكتوب في المنفى، يرسم ويصور الواقع العراقي برؤيا تمتلك مساحة واسعة من الحرية،فتأتي صوره تجسيداً للواقع والحقيقة، ويعد المنفى سبباً في تطوّر الرواية العراقية بصورة عامة[١٧].

وربما أول ما يطالعنا في هذا (رؤوس الحرية المكيسة) رواية جاسم الرصيف، وهي مكتوبة بنفس سياسي، تدور أحداثها في مدينة الكاتب (الموصل)، عقب أحداث ٢٠٠٣، التي انتهت بسقوط النظام الحاكم ودخول الامريكان. وبالتوقف عند أول عتبة تُطالعنا في الرواية، عنوانها، يشير الكاتب فيه الى الحرية التي فقدها الشعب العراقي أيام الحكم السابق، تلك الحرية التي جاءت مغلفة للعراق من خارج حدوده، بعد ان فشل العراقي بصناعتها، وفي الوقت نفسه يُدين الكاتب تلك الحرية ويرفضها بشكل مقنع، عندما افتتح العنوان بكلمة رؤوس، اشارة منه الى الحرية المزعومة التي نادى بها المحتل، وطريقة تعامله مع من يُلقى القبض عليهم، اياً كان السبب، حيث تُغلف رؤوسهم بأكياس، أي بعبارة أخرى هذه هي الحرية التي حلمتم بها، هذا ما جاء به المُحتل، غير مؤمنٍ بغياب الحرية في زمن النظام السابق،

وغاضاً بصره عن حقيقة عجز العراقي عن تحقيق حلم الخلاص من الطاغية، ذلك الحلم الذي لم يتحقق إلا بدخول الامريكان، فالعراقي بغض النظر عن حالات التمرد التي حصلت، لم يملك القدرة الحقيقية على التغيير، فأكثر ما كان يملكه أملاً وحلماً بالخلاص، من هنا نفهم البُعد السياسي الذي تقوم عليه الرواية.

تحدثت الرواية عن الاحداث التي صاحبت دخول قوات الاحتلال الى مدينة الموصل، وحالة الجيش العراقي في تللك المرحلة، وما جرى من أحداث بعد سقوط النظام وانتهاء حكمه، فضلاً عن ذكرٍ للكورد مقترن دوماً بثيمة الخيانة. يُقدم لنا الراوي، إحدى شخصيات الرواية التي تُساق جبراً الى الجيش برغم صغر سنه، (زمن) مقاتل يلتحق بالجيش في أيامه الأخيرة، ليحمل السلاح ضد العدو القادم من الجهة الشرقية للمدينة، العدو صاحب الوجه المقنع بقناعين أمريكي كوردي.

"... وطلقة من هنا!! وأشار نحو الجبال، ستمحو العـلوج ومـعهم البيشمركة"[١٨]. يُفصح النص عن أن المنطقة الشمالية، هي معقل العدو الامريكي المحتـل (العلوج التسمية التي اطلقها النظام على قوات الاحتلال)، مع قوات البيشمركة الكوردية، ويُصنف الكورد في خانة العدو الذي يجب أن يُحارب أيضا، فكـما يجب التصدي للأمريكي كونه محتلا للبلد، سيُرفع السلاح بوجه الكوردي، لأنه مشاركٌ للمحتل ومتفق معه في الفعل.

زمن "ينظر نحو الجهة الشرقية من المدينة التي قيل أن الأمريكان والأكراد قادمون منها"[١٩]. تأكيد آخر على أن الأمريكان سيدخلون بمساندة الكورد، وأن الكورد يوفرون ملاذاً آمناً لمحتل أراضيهم، تلك الفكرة كانت مدار الرواية.

"ومزيداً من الطائرات والجنود والعتاد يحط في أربيل على ذات الاجنحة بنكهة كوردية... وطلائع الامريكان في السليمانية"[٢٠].

الكلمات السابقة ترد على لسان البدراني، إحدى شخصيات الرواية القادم للموصل، بعد لجوئه الى كوردستان، طالبا مساعدة صديق كوردي، للهروب خارج البلاد، وبعد فشل المحاولة، يلجأ الى الموصل لعدم قدرته على الرجوع الى مدينته، يتحدث عن تللك الريح القادمة من جهة الشمال، المحمولة بأجساد الطائرات الامريكية، المسنودة باجنحة كوردية. يكشف هذا المقطع عن العلاقة التي جمعت الكورد والامريكان، مقدما صورة عن حجم التعاون والدعم والاسناد بينهم، إذ يُقدم الكورد المساعدة بجعل الاراضي الشمالية قاعدة لقواتهم. في حين أن القواعد الامريكية المُعدة لانطلاق الجيش، برياً او جوياً كانت تستقر في الدول المجاورة[٢١].

وعلى لسان الشخصية ذاتها يرد: "...وبوابة الكورد تستعد للاندلاق نحونا بقيء الحرب"[٢٢].

يتضمن النص وصفا للكورد، كجسد مريض متخم بالخيانة، ومصدرا ينطلق منه المرض، بوابة للشرور. جمل تحمل المعنى نفسه، تتكرر على طول الرواية، تُشكل إدانة للكورد، كونهم خونة، تجمعهم صداقة مع ذاك القادم من خلف الحدود، ثمة تأكيداً تحمله سطور الرواية على الصورة السيئة للكورد وتصويرهم كأعداء للبلد وسببا في خرابه. تلازم مستمر بين لفظتي الكورد والامريكان.

"... قبل وصول الامريكان والاكراد،... هل نقاتل الأمريكان والأكراد؟... الأمريكان والبيشمركة والخونة سيدخلون الموصل،... طلائع الجيش الامريكي والبيشمركة دخلت من الجهة الشرقية لمحافظة الموصل،... ماذا ستفعلون يا أولاد للامريكان والبيشمركة، الامريكان قادمون مع البيشمركة نحو الموصل؟"[٢٣].

في النص إصرار على تلاصق الكورد والامريكان في خانة واحدة، وهذا يجعلنا نتساءل لماذا هذا الاصرار على إيراد المعنى ذاته في أكثر من جملة ومقطع في الرواية، في حين كان يُمكن أن يُستعاض عن كل هذا التكرار بجملة واحدة تحمل المعنى بوضوح في مقطع واحد؟ أعتقد أن غاية التكرار هي تثبيت الفكرة لدى القارئ، وترسيخ للصورة عند المتلقي، لأنه كما هو معروف أن غاية التكرار في اللغة العربية وفائدته هي للتوكيد وزيادة للتنبية وتثبيت للمعنى، ولما تتركه من أثر انفعالي ونفسي لدى المتلقي[٢٤].

البدراني متجهاً نحو الشمال للهروب من مدينته الرمادي، كونه مطلوبا للحكومة بتهمة التعامل مع جهات معادية، لكنه يُفاجئ بسوء الوضع في كوردستان، بعد ان يخبره صديقه بكر أن الوقت غير ملاءم للهروب: " ان الوقت غير مناسب للهروب الى خارج العراق، لأن المنطقة الشمالية افلتت من سيطرة الحكومة في بغداد وسقطت في ايادي الاحزاب الكوردية التي تذابحت من اجل السيطرة على منفذ ابراهيم الخليل الحدودي مع تركيا"[٢٥].

في النص إشارة للمشاكل التي عانى منها الكورد بعد التخلص من سيطرة الحكومة المركزية، فبعد المعاناة مع السُلطة والخلاص من حروبها، دخل الكورد حربا من نوع آخر، حرب داخلية بين الاحزاب الكوردية ذاتها، يبرز فيها عنصر المصلحة الشخصية للأحزاب، وليس لكوردستان ذاتها، ولأصحاب النفوذ بعيداً عن مصلحة الشعب الكوردي نفسه.
تستمر صورة اقتتال الأحزاب فيما بينها حدّ التعامل مع عدوهم المشترك والاستعانة به: " كان البارتي الذي يسيطر على دهوك وأربيل وزاخو، قد استعان قبل أسابيع بالحكومة في بغداد لطرد اليكتي، جماعة جلال الطالباني ومؤازريه الايرانيين من المنطقة، وفر هؤلاء الى داخل الاراضي الايرانية، ثم عادوا الى السليمانية بعد أن انسحب الجيش العراقي من اربيل، فشكلوا حكومة راحت بيشمركتها تتطاحن مع بيشمركة البارتي على طول قوى التماس بين الحزبين"[٢٦].
أحاديث تدور بين عامة الناس في (الثالولة)، ومنها عن الكورد والامريكان، " الاكراد الذين آزروا الامريكان مع بعض الخونة العرب..."[٢٧]. استوقفني هذا السطر، بعيداً عن المعنى المتكرر لعلاقة الكورد مع الامريكان، أقف عند العمومية التي تجعل الكورد كلهم في خانة الخيانة والتعاون مع العدو دون استثناء، في حين تُسبق لفظة العرب بكلمة بعض!.
وترد في الرواية شخصيات تعزز المنحى العام: كاشان، والخضرم، وكاكا صالح، المشتغلون في تجارة السلاح، كاشان إحدى نساء القرية، تعمل على جمع النفايات، مجندة لهذا العمل عدداً من الفتيات، تتعرف على كاكا صالح عن طريق المخضرم، ويعملون سوية في تجارة الأسلحة، وتنشأ علاقة بينهم ليكون هو الممول، وهي تعمل على تصريف البضاعة: "... خرجت كاشان مسرعة نحو الحوش...رجلاً كردياً بسروال مكوي باتقان مع سترة ثمينة، بعد تبادل التحيات... يتحدث المخضرم وهو يوضح لها أن الجماعة، واشار نحو كاكا صالح، وافقوا على مبلغ ستة آلاف دينار للقنبلة الواحدة ويريدون معرفة الكمية... أجابت هي على التصريف، عندئذ تدخل كاكا صالح، سأرسل لك خمسين، لدينا بضاعة اخرى سنتفق عليها في وقت آخر"[٢٨]. في النص إشارات عدة منها، ثراء الرجل الكوردي نتيجة التجارة المشبوهة والممنوعة، سعيه لنشر الفوضى والخراب، وذلك بجعل السلاح في متناول عامة الناس والمتاجرة ببيعه لمن يريد، وصف لظاهرة (حمل السلاح والمتاجرة به) التي اجتاحت المجتمع العراقي بعد سقوط النظام.
وثمة نص آخر يقدم لنا صورة سيئة عن الكورد ويظهرهم بشكل سلبي، يتمثل في شخص كاكا صالح الذي تجمعه علاقة سيئة مع كاشان، نتيجتها الاتفاق على تجارة جديدة، بشكل أكثر بشاعة من تجارة السلاح، تجارة عمادها البنات اللاتي يعملن تحت أمرة كاشان في جمع النفايات[٢٩].
من بين الصور المتعددة التي يأخذها الكاتب عن الكورد بشخصيات ثانوية في الرواية، القتل، السرقة، الاستغلال، الفوضى: " كانت سيارتا حمل كبيرتين تقودهما مجموعتان مسلحتان من الرجال، بزي كوردي، قد حاولتا السطو على غنائم الثالولة،... أطلق ثلاثة شبان من الثالولة النار عليهما وقتلوا واحداً، بينما هرب الاخرون بسيارة واحدة تاركين السيارة الثانية المسروقة من دائرة الاوقاف في الموصل، كان القتيل في الثلاثين من عمره، تشير بطاقة هويته الى انه من قرى محافظة دهوك"[٣٠]. كورد يسعون الى السرقة ونشر الفوضى، مستغلين الاوضاع بعد دخول المحتل، يتمتعون بحرية التنقل، كونهم أصدقاءً للامريكيين، إستمرار الادانة بالفعل السيء للقومية المحددة. كان الامريكان وسيلة لإسقاط النظام ودخول مجاميع المعارضة التي كانت خارج العراق، كثيرة هي الشخصيات ذات العلاقة بالمحتل، وكثيرون هم من ساندوا الامريكان وكونوا علاقات معهم، فهل يغيب هذا عن ذهن الكاتب؟ ليحصر العلاقات بالكورد دون غيرهم، ويجعل دائرة السوء تدور حولهم[٣١].
وبالثيمة نفسها والفكر ذاته يُقدم لنا الكاتب جاسم الرصيف، رواية أخرى بعنوان (ثلاثاء الاحزان السعيدة)، تدور أحداثها حول مجموعة لاجئين يريدون عبور الحدود الى إيران، متخذين من السُليمانية، محطة لقاء وانتظار لهم، وتنتهي محاولة العبور بموت الجميع تقريباً. منهم من جاؤوا لتهريب آثار عراقية عبر الحدود، وكانت السليمانية محطة الأمان لهم، أركان هذه العملية: أبو سلام المهرب، الدكتور دلير الوسيط الكوردي، وملا يوسف الكوردي، العارف بطريق الأثار والكهوف التي تحويها، الذي يضع يده على الأثار والمتحكم في بيعها وتصريفها، تُضاف هذه العملية الى عدد من الخروقات المسجلة ضد الكورد من وجهة نظر المتحدث، فيصور لنا ضعف الانتماء لدى الكورد، لدرجة المتجارة بآثار البلد من دون أي شعور وطني[٣٢].
"انا ذاهبة الى منطقة وحده السلاح يمثل القانون والعدالة والحق الى آخر المسميات التي ما زالت تُحتضر منذ فترة طويلة في بلدنا"[٣٣]. من خلال الحديث مع الذات، تصف لنا (ملاذ) وجهتها المتمثلة بمدينة السُليمانية، أوصاف تشير الى الفوضى التي تعيشها المدينة، حيث السلاح هو اللغة الوحيدة المتبعة في مجتمعها، ومع سلوك العنف تغيب كل لغات القانون والعدالة والحق، تلك التي تعاني احتضار ما قبل الموت في البلاد. في النص إشارة لحياة غير مستقرة، محكومة بنظام القوة وغياب للسُلطة وانتشار رائحة الموت لكون سلطة السلاح هي الحاكمة والمسيطرة على الشارع.
وهذا ما تؤكده شخصية نزيلة الفندق في حديثها مع ملاذ: "... معظم الزبائن هنا في هذا الفندق او في المدينة، لهم اتصالات تدوخ إي إنسان، لهم اتصالات حتى مع الحكومة، ثمة لصوص، قتلة، هاربون، سياسيون، لا تثقي بأحد،... إنها مدينة الغرباء، وحده السلاح يحكمها، لسنا في أمان هنا صدقيني"[٣٤]. في النص صورة سلبية، تشتت في الولاءات والانتماءات، فقدان للثقة والآمان جراء غياب السلطة وانفصالهم عن الحكومة المركزية، سوء يغلف السليمانية، تصوير المدينة على أنها ساحة للقتلة والهاربين، للتجسس والخيانة، غياب للمصداقية.
وليس بعيداً عن هذا ماذهب إليه الروائي (صلاح صلاح) فبرؤية داخلية يُطالعنا عبر سيرته الروائية: (تحت سماء الكلاب)، وهو عنوان يحمل دلالة سلبية يدعمها محتوى الرواية. للوهلة الاولى قد يبدو العنوان غريبا، عند قراءته تتبادر إلى الذهن

أسئلة عدة، عن أي سماء يتحدث، وهل للكلاب سماء خاصة؟ وماذا يعني أو يقصد بلفظة الكلاب؟ هل قُصد بها الحيوان ذاته، أم إنها ترمي لتوظيف صفة الكلب، وإضفاء لهذه الصفة على الإنسان؟ ولماذا اختار الكلب بالذات ليُعنون به روايته؛ ألقوة الوفاء التي يتصف بها، أم استُخدمت للتحقير والتقليل من الشأن؟ كل هذا يتبدد بقراءة الرواية، التي يتضح منها، أن السماء المقصودة هنا سماء أربيل، المدينة التي لجأ اليها الكاتب في مرحلة معينة، هارباً من سُلطة النظام وحكومته، فضلاً عن المحافظات الكوردية الاخرى التي سيتنقل الكاتب بينها، وأما الكلاب فهم الكورد الذين شملهم بهذه الصفة بشكل عمومي دون استثناء، بالرغم من أنه سيجد منهم من يساعده ويغطي عليه ويخفيه من الموت وينقذ حياته ويقرضه مالاً، إلا أنه لا يتوقف طويلا عند هذا الموقف، حتى أنه يمر عليه مرور الكرام، مقابل ما يقدمه من صور سلبية عنهم، كما سنرى في الرواية، فضلاً عن أنه يعمل في جريدة الاتحاد التابعة لجلال الطالباني. ومن الملاحظ أن الرواية مركزة على حياة الكاتب بعد وصوله لكوردستان العراق، وليس هناك أي ذكر لحياته قبل هذه المرحلة، ولا حتى ذكر للسبب الذي جعله يهرب من النظام ويلجأ لشمال البلاد، أو ذكر للمعاناة التي عاشها وأدت به الى الرحيل.

وقد وظف تقنية الاسترجاع بشكل واسع ليؤكد البُعد السيري للرواية، ومن خلال هذه التقنية يُقدم لنا الكاتب عدداً من الصور السلبية عن الكورد: "آخرون من الاصدقاء قبلوا الموت بسكون، التفوا ببطانيات ممزقة، ثم حملتهم العسس* بحماية بيشمركة مسعود البرزاني، أين ذهبتم بهم أيها الموغلون بدم الاصدقاء... إنهم يبتسمون ويضحكون للمدى الغارق بخياناتهم"[٣٥].

يشير النص الى مجموعة من الناس تحت مسمى الأصدقاء لجأوا أيضا الى كوردستان العراق، يعانون الفقر وينتظرون الموت بهدوء، يختفون بسبب العسس والبيشمركة التابعة لمسعود البرزاني، الذين وصفهم بالإيغال بدماء الناس الضعفاء، يضحكون غير مبالين، غارقين في الخيانة.

وفي وصف آخر لمدينة الموت، يقول: "إن الموت هنا يُوزع مجاناً وملفوف ببطانيات ملونة زودنا بها بيشمركة مسعود"[٣٦]. وهو يقدم البيش مركة بوصفها لا تعرف سوى الأذية، وتقدم الموت بكل الألوان، متخفيا وراء صور الخداع الذي تتبعه مع الناس في المدينة.

تقدم الرواية وصفاً للكورد على أنهم عملاء وخونة يعملون لصالح منظمات أمريكية وإسرائيلية، أُنشأت للتجسس، فضلاً عن جود أجهزة تابعة لمسعود البرزاني تعمل على إجبار الناس واتباع المعارضة للعمل لصالحها، من خلال الزج بهم في السجون والتعذيب، وتشير الى عنصرية الكورد وقتلهم للعرب بحجة أنهم اتباع النظام في بغداد. وتؤكد قوة الاحزاب الكوردية في السيطرة على عقول الكورد وأنهم يفتقدون الانتماء للوطن، واصفاً اياهم بأوصاف قبيحة[٣٧].

وفي الحديث عن مأساة حلبجة، يُبين أن القوات الايرانية هي المسؤولة عن هذه المجزرة: "...ان القوات الايرانية ضربت القطاعات العسكرية العراقية بالاسلحة الكيمياوية وتساقط بسبب ذلك العشرات من المدنيين*"[٣٨]. يُطالعنا الكاتب في هذا النص نقلاً عن دكتور كوردي تعرف عليه في اربيل، أن العدو الايراني هو من تسبب بجريمة القصف الكيمياوي لمدينة حلبجة، وهذا يُعدّ دليلاً على الكورد باعتراف شخص كوردي، وفي الوقت نفسه يتضمن الحديث نفياً لأية علاقة للنظام العراقي بهذه العملية.

وفي إشارة أُخرى الى أن للكورد انتماءات لقوى خارجية تتمثل بأمريكا وإسرائيل: " الكوردي عبارة عن انسان محاط بهالة وخطوط متشابكة من الوله بالآخر القوي، وهو هنا اسرائيل والامريكان على وجه التحديد،... المتعة هي رؤية عراق ممزق، لكنه غير منفصل، إذ إن انفصال الكوردي سوف لا يمنحهم القدرة على التأثير في الوضع العراقي، وتنتفي عنهم صفة الارتزاق وهو ما لا يريده قادة الكورد،... أنهم ليسوا أكثر من مرتزقة امتهنوا القتال من اجل الدولارات والسرقة"[٣٩].

يُفصح النص السابق بوضوح عن صورة للكورد معنونة بالخيانة والعمالة، وحبهم لدور العميل الذي يعمل لصالح قوى خارجية، والمصلحة من هذا الدور هو المال ورؤية البلاد ممزقة داخلياً، تعيش حالة من الفوضى واللا إنتظام، أي أن للكورد دوراً كبيراً في تأزم الوضع في العراق، وفي اللحظة ذاتها لا يريدون الانفصال الذي لطالما طالبوا به، لان ذلك سيبعدهم عن التأثير في الساحة العراقية، وهذا خلاف ما يسعى له القادة الكورد، القادة الذين يعيشون على المال المستحصل جراء مهنة القتل والجاسوسية والعمالة.

ويؤكد هذه الصورة مرات عدة: "هناك حالة غريبة يعيشها الكوردي، وهي الانبطاح أمام الإيراني والفارسي تحديداً، حيث يتحول الكوردي أمام الايراني الى شبه نعل مطاط ينتعله الايراني باستمرار وحينما يضجر منه يرميه الى المزبلة، لكن هذا النعال يشبه حذاء ابو القاسم الطنبوري، اذ سرعان مايعود الايراني لينتعله من جديد وتبدأ دورة حياة جديدة، الكوردي عموما يشعر بالضعف امام الايراني"[٤٠].

بسلبية عالية وثقافة تُفصح عن اللاثقافة، يصور لنا النص ثنائية العلاقة بين الكوردي والايراني من وجهة نظر الراوي، وكيفية تحول الكوردي من إنسان الى نعل وأي نعل، مطاطي! في قدم الإيراني، الذي بدوره يتقن انتعاله باستمرار من أجل مصلحته، التي ما أن تنتهي حتى يكون مصير النعل المزبلة، ويشبه هذا النعل بحذاء ابو القاسم الطنبوري، الحذاء الذي كان يعود دوما لصاحبه في كل مرة يتخلص منه في دورة يشبهها بدور الحياة، اي ان الفعل هذا جزء من حياة الكورد، وكل هذا يحظى بقبول الكوردي.

وبثقافة النعل ذاتها، يقول: "... الكوردي يعتبر وجوده مع العرب قمة المأساة، اما بقاءه تحت النعال الايراني والتركي فإنه مقبول جدا ومرحب به"[٤١].

يستمر الحديث بوصف الكورد كأداة لا قيمة لها، تقبع تحت تصرف الايراني والتركي، وذلك بقبول وترحيب من الكوردي، أن يكون تحت تصرف الآخر، في حين يكره وجوده مع العربي المجاور له، معتبراً تعايشه معه مأساة.
العروبة، الوتر الذي عزف عليه الكثير: " إن العداء كله موجه لتدمير العروبة، إيران، تركيا، الأكراد، الإسرائيليون، الأمريكان، الأوربيون، شيء مخيف أن تواجه العروبة كل هذا الكم الهائل من الاعداء الذين يريدون أن يروا العروبة ممزقة ومحطمة"[٤٢]. يكشف لنا هذا المقطع تعدد وكثرة أعداء العروبة، الذين يسعون لتدميرها، ومنهم الكورد، فالكل غير العربي يريد التخلص من العروبة وتمزيقها والتمتع بالنظر اليها محطمة، لكن السؤال الملح هنا، هل توجد فعلا عروبة حقيقية واقعية، حتى تُدمر؟
" الاكراد هم عبارة عن سلاح من أسلحة الغرب لغرض إضعاف وقتل العروبة"[٤٣]. سلبية الدور الكوردي، وكونه أداة بيد الغرب يوجهها كيفما يشاء ليضرب بها العربي في عروبته، وإذا ماعدنا لحقيقة الأمر، توجد دول عربية مستقلة لكن لا توجد أُمة عربية واحدة حتى تُضرب، وتكون هدفاً للآخر غير العربي.
ومن ثم، وبصورة غير مباشرة، نجد دفاعاً عن الحكومة العراقية، وتسويغاً لافعالها مع الكورد، ونفيا لكل سوءٍ يمكن أن يُذكر في حدود العلاقة بين الحكومة والكورد: "إن الحكومات العراقية أخطأت في تعاملاتها مع الاحزاب الكوردية،... لقد فشلت محاولات حكومية سابقة في تحرير الكوردي من سُلطة الاقطاع، ويبدو أن الانسان الكوردي هو الذي لا يريد أن يتحرر، إذ لا يمكنه العيش دون قوة فوق رأسه"[٤٤]. بدءاً وبعد الانتهاء من المقطع، تبادر إلى ذهني سؤال: عن أية محاولات يتحدث؟ في السطر الاول لمحنا صدق المقولة المتمثلة بخطأ وسوء التعامل مع الكورد، لكن مع وجود السطر الثاني يُنفى ذلك الصدق المرجو من الحديث، فنفهم أن الحكومة كان يجب أن تفعل أكثر.
وهذا يقوده إلى نفي لكردستان ارضاً وتسمية، "حلم وهمي أسمه كردستان، تللك التسمية التي ابتدعها مجهول، فتعلق بها الكورد*"[٤٥].
ولا يكتفي بهذا، بل يذهب إلى التشكيك في إسلام الكورد، فهو (الإسلام) مأخوذ كواجهة لإخفاء الدين الحقيقي للكورد (الزرداشتية) إذ يرى أنهم يحافظون في دواخلهم على هذا الدين، أما الإسلام فقد كان سببا في تحطيم الكورد وديانتهم، وتسبب لهم بعقدة في الذات، جعلتهم يتعاملون مع اسرائيل دون الاحساس بالخيانة، اوصاف يرسمها الكاتب للكورد، ربما لم سيبقه فيها أحد[٤٦].
ثم يوغل في تطرفه برسم صورة للكورد غير إنسانية "الكوردي مخلوق من الجن والإنسان، كما تقول قصص الميثالوجيا"[٤٧].
ثم يظهر أن صداماً محب للكورد، وبذل الكثير من أجل أن يجعلهم يحبون الحياة: "حاول صدام حسين وقبله السياسيون، أن يغيروا التركيبة، أن يمنحوا الكوردي سببا آخر للحياة، غير القتل وتأجير البندقية، لكن المحاولات باءت بالفشل، وبقي الكوردي يُمارس القتل للهواية أو التسليب أو خدمة عدو خارجي،... لم يستطع الكوردي رغم محاولات صدام حسين أن يتحول الى انسان مديني،... عندما استعمل صدام القوة ضد الكورد فإنه لم يستعملها بشكل اعتباطي، إنما لاسباب، منها: استئصال شأفة المتعاونين مع الموساد والايرانيين،... محاولات صدام في أنسنة الكوردي باءت بالفشل، وفشلت معه فكرة تحويل الكوردي الى عنصر إيجابي في المعادلة العراقية، كان صدام يفكر أن يجعل الكوردي صاحب أرض ومزارع وأن يحرره من سلطة الاغا ورئيس العشيرة، إلا أن الكوردي كان يتمرد على هذا بالعودة اكثر الى جذوره"[٤٨].
هي صورة متناقضة، فهو متمرد على سُلطة الدولة، خاضعٌ لسلطة الأغا أو الشيخ تناقض لم يشعر الروائي بأنه يهدم بعضه بعضاً، ومن ثم فنحن أمام صورة ملتبسة شيطن فيها الكاتب الشعب الكوردي بأجمعه.
أما في رواية (الضلع) للكاتب حميد العقابي فنحن أمام مشهد لصورة سلبية عن مقاتل كوردي، (حميد بطل الرواية)، تأسره قوات البيشمركة، بعد أن يُنقل للعمل في كوردستان العراق، وفي دورية للعمل هو ورفاقه يتعرضون لاطلاق نار، وهنا يكون شاهدا على الصورة السلبية لأحد المقاتلين الكورد، قبل أن يقع أسيرا بين أيديهم: "... بدأت بنصب جهاز المساحة، ولم تكد تمر بضع دقائق حتى انهال علينا الرصاص من كل الجهات،... تركت الجهاز واختبأت خلف صخرة كبيرة، سمعت اصواتاً قادمة، أخرجت رأسي قليلاً، فرأيت جثة جندي لم يبلغ العشرين من عمره، كان مصاباً في كتفه اليسرى، أقدام تقترب من الجسد المنكفئ على وجهه، رجل بزي كوردي هبط على السفح، ركله بقدمه فانقلب الجندي... متوسلا، وضع المقاتل الكوردي قدمه على عنق الجندي، فامتدت يد الاخير ماسكة القدم محاولا تقبيلها، فسحبها بقوة ثم أفرغ صلية في رأسه"[٤٩].
يكشف النص عن قسوة المقاتل الكوردي في التعامل مع الجندي العراقي، في المرحلة التي كان فيها النظام يوزع قواته بين المناطق الكوردية، ويتضح لنا كيف هي ردة فعل الكوردي على الجندي العراقي الذي قد يكون مُجبرا على فعل لا يريده ولا يؤيده، النص يقدم صورة الاقتتال بين أبناء الشعب الواحد، وحالة التربص والعداء التي يعيشها كل منهم للآخر.
في حين أن الروائي سلام إبراهيم في روايته (الحياة لحظة) يعود الراوي فيها بذاكرته من أرض المنفى في شقته بموسكو الى الوطن، ليسرد لنا احداثاً وقعت في الماضي، إذ كان هو ورفاقه يعيشون حياة النضال في جبال كوردستان مع الكورد، يقدم لنا قصة (جميلة) إحدى رفيقات النضال مع إبراهيم، في جلسة جمعت جميلة مع إبراهيم في شقته، استرجعوا الماضي وعاشوا لحضاته المؤلمة من جديد.
جميلة تروي حكايتها: "في آيار ١٩٨٣، حوصرنا في موقع بيشتاشان، كنا ثلاثة رفاق ورفيقتين، قررنا عدم المقاومة، فالمعركة بالأساس لم نكن مؤمنين بها، فجماعة أوك هم اخوتنا في النضال، فأسرونا،... وتحركو بنا باتجاه مقراتهم، تسلقنا

قمة عالية، وفي فسحتها العريضة، سمعت أحد المسلحين السائرين خلفنا، يُنادي على المسحلين في المقدمة، فما كان منهما سوى الابتعاد يسارا عن رفاقنا الثلاثة، وسحبنا أحدهم بعنف الى الخلف، وبشكل مباغت أطلق الأربعة النار باتجاه الرفاق الثلاثة وأمام أعيننا سقطوا الواحد بعد الاخر"[٥٠].

يبين النص حالة الصِدام التي كانت موجودة بين الأحزاب الكوردية الرئيسية (حدك وأوك) في بداية الثمانينيات وتكررت في التسعينيات من القرن الماضي، فكانت الأحزاب تحارب في جهتين، خارجية متمثلة بنظام صدام والحرب العراقية الإيرانية، وداخلية بين الاحزاب الكوردية ذاتها، وقد ذهب ضحيتها عدد كبير من الابرياء من الكورد والعرب. في النص إشارة لروح الثقة في نفس المناضلين تجاه الأخ في النضال، الأخ العربي الذي لم يؤمن بالعداءات الداخلية، ومؤمناً ومشاركاً لحركات النضال ضد النظام المركزي، تلك الثقة التي خُذلت من قبل جماعة حزب أوك، رغم أن المصير المشترك جمع بينهم، وروح النضال وحدت كلمتهم من اجل الحصول على الحق، نجد صعوداً للمصلحة الشخصية التي تسعى للسُلطة، بأي ثمن، وإن كانت على حساب ذاك المشترك في النضال والغاية والآمال.

أما في رواية (ليل البلاد) للكاتب جنان جاسم حلاوي، فيقدم لنا الراوي مشهدا سلبيا للكورد، ينقل لنا فيه تجربة الماضي لنعيشها معه في الحاضر. أحداث نتعرف عليها من خلال بطل الرواية عبدالله، القادم من أقصى الجنوب (البصرة) مدينة الكاتب، الى شمال البلاد، بعد أن يُنقل ليكون ضمن وحدة عسكرية متنقلة تستقر في السليمانية، وهناك يكون بتماس مع رجال البيشمركة.

يُأسر عبد الله ورفيقه أحمد، ويدخل في سلسلة أحداث يضطر فيها للقتال الى جانب من أسروه، لينتهي مصيره مشوه الوجه مع عرج في ساقه ويعود الى مدينته البصرة، ليبقى وحيداً مع ما تبقى من داره.

"عبدالله يسأل الشاب الذي شرع يُراقب الآن مرتفع سرية المدفعية، منصتاً لأصوات إطلاق النار، مالأمر يا أخي؟

أجاب بحنق:

اليكتي يشنون هجوما.

من؟ اليكتي، الطلبانيون، جماعة جلال الطالباني.

...هنا انبثقت فكرة خطيرة في رأس عبدالله

سنقاتل معكم ضد اليكتي،... لاننا نؤمن بأنكم على صواب.

إن كنتم لا تصدقون أننا نريد أن نحارب معكم ضد اليكتي أعداء الشعب، فنحن نبغي الدفاع عن أنفسنا على الاقل ضد البرابرة"[٥١].

في هذا المشهد الحواري نلاحظ خوفاً من المصير المجهول الذي ينتظر عبدالله وهو أسير عند جماعة، هو بنظرهم ينتمي للعدو، جعله يتعايش مع وضع الأسر والأحداث التي كانت سائدة في تلك المرحلة في كوردستان، المتمثلة بثنائية المحور، اكراد/ عرب، اكراد/ اكراد (الاحزاب الكوردية فيما بينهم)، والحرب الدائرة بينهم، يحاول عبدالله إيجاد مخرجا له ولرفيقه، يساعده في المحافظة على نفسه، وايجاد طريقة للهروب، فيصل الى فكرة المشاركة في الحرب الداخلية المشتعلة بين الاحزاب الكوردية، محاولا اقناع آسريه إنه مؤمن بقضيتهم، وأنهم على حق، بعد أن عرف أن الطرف المقابل في الهجوم هم جماعة اليكتي، القوات العائدة لجلال الطالباني، يستغل عبدالله هذا الشيء، ويبدأ بتوجيه التهم والنعوت السلبية لجماعة اليكتي استمرارا لمحاولة الاقناع، واصفاً إياهم بأنهم أعداء الشعب، وبرابرة يجب التصدي لهم. وكلمة بربري اختصار لنعوت كثيرة، فالبربري هو "الهمجي، الوحشي، غير المتحضر، البدائي، غير الإنساني، من يعمل بوحشية وقساوة دون نظام"[٥٢]

إنها صورة يمكن أن نقول أُريد بها الكوردي عموما هنا، وليس أفراد حزب الطالباني فحسب.

الهوامش

[١] يُنظر: مدخل الى الايديولوجيات السياسية: ١١ –١٢.

[٢] مدخل الى عالم السياسة، موريس دوفرجيه، ت. جمال الاتاسي وسامي الدروبي، دار دمشق للطباعة، دمشق: ٧.

[٣] يُنظر: علم الاجتماع السياسي، فيليب برو، ت. محمد عرب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط ١، ١٩٩٨: ٢٤. ومدخل الى عالم السياسة: ١٢. ومعجم مصطلحات هيجل: ٢٠٩.

[٤] يُنظر: الايديولوجيا دفاتر فلسفية: ٦٢-٦٣.

[٥] يُنظر: مدخل الى الايديولوجيات السياسية: ١١.١٥.

[٦] يُنظر: النقد الروائي والايديولوجيا: ١٤. وتمثيلات الآخر:١٦٥-١٦٦.

[٧] يُنظر: م. ن: ٣٧.

[٨] يُنظر: م.ن: ٣٧- ٣٨. والايديولوجيا دفاتر فلسفية: ٤٧.

[٩] يُنظر: الايديولوجيا دفاتر فلسفية: ٤٨- ٤٩.

[١٠] مفهوم مقابل لمفهوم العروبة عند العرب. يُنظر: تاريخ الاكراد الحديث، ديفيد ماكدول، ت.راج الله محمد، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤: ٣٢... ٣٥.

[١١] يُنظر: المرئي واللامرئي في الادب والسياسة، هادي العلوي، دار المدى، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ط٢، ٢٠٠٣، ص١٥٢. وجدل الهويات، سليم مطر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣، ص٦٥.
[١٢] يُنظر: الاثنية والدولة، فالح عبد الجبار وهشام داود، ت. عبد الاله النعيمي، الفرات للنشر والتوزيع، بغداد- بيروت، ط١، ٢٠٠٦ :١٦٦- ١٦٧-٤٥٣- ٤٥٤. وتاريخ الاكراد الحديث: ٢٤٣...٢٤٨، ٢٧٣...٢٧٦. والقضية الكوردية في العراق، منذر الموصلي، دار المختار، دمشق، ط١، ٢٠٠٠: ٣٠...٣٦، ٥٢-٥٣. والمشكلة الكوردية في الشرق الاوسط، حامد محمود عيسى، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٢: ٥٢. ودولة كوردستان، بشتوان صادق، اربيل، ط١، ٢٠١٣: ٥٩... ٦١.
[١٣] يُنظر: القضية الكوردية في العراق: ٦٩- ٧٠.
[١٤] العراق، حنا بطاطو، ت.عفيف الرزاز، دار الحياة، القاهرة، الكتاب الاول: ٤٤. والهوية والامة في العراق: ٩٠، مقتبس من تاريخ الوزارات العراقية، عبد الرزاق الحسني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، مج٣، ١٩٨٨: ٣١٧. وبلاد مابين النهرين، هوشنك وزيري، دار نون، الاردن، ط١، ٢٠١٥: المقدمة.
[١٥] يُنظر: السُلطة في الرواية العراقية، احمد رشيد الدده، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٣: ٣٢... ٣٦. وصور المثقف، أدوارد سعيد، ت: غسان غصن، دار النهار، بيروت، ١٩٩٣: ٣٧.
[١٦] يُنظر: السُلطة في الرواية العراقية: ٣٣.
[١٧] يُنظر: الرواية العراقية، رصد الخراب العراقي في ازمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسُلطة الطوائف، سلام ابراهيم، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٧ ديسمبر ٢٠١٢، العدد٢: ٦- ٨.
[١٨] رؤوس الحرية المكيسة، جاسم الرصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٧: ١٢.
[١٩] م. ن: ٢٥.
[٢٠] م. ن: ٣٦-٣٧.
[٢١] يُنظر: الامبروطورية الامريكية والاغارة على العراق، محمد حسين هيكل، دار الشروق، القاهرة، ص١، ط٢، ٢٠٠٣، ط٣، ٢٠٠٤: ٣٧٤.
[٢٢] رؤوس الحرية المكيسة: ٤٣.
[٢٣] م. ن: ٧٦... ٢٥٥.
[٢٤] يُنظر: التكرار مظاهره وأسراره، عبد الرحمن محمد الشهراني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٣: ٢٥-٣٠.
[٢٥] رؤوس الحرية المكيسة: ٩٦–٩٧.
[٢٦] م. ن: ١٠٢.
[٢٧] م. ن: ١١٠.
[٢٨] م. ن: ١١٦- ١١٧- ١٢١.
[٢٩] رؤوس الحرية المكيسة: ١٥٤- ١٥٥. ١٧٤- ١٧٥-١٨١- ١٨٢.
[٣٠] م. ن: ١٥٢- ١٥٣-١٩١- ١٩٢. ٢٢٢.
[٣١] م.ن: ٢٥٤.
[٣٢] ثلاثاء الاحزان السعيدة، جاسم الرصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤: ١١-٢١-٣٢-٤٢-٤٥، ٦٥، ٧٦، ٨٧، ٩٩، ١١٠، ١٢٠، ١٣٢، ١٤، ١٥٤، ١٦٦، ١٧٧، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٦٨.
[٣٣] م.ن: ٥١.
[٣٤] م. ن: ٧٣- ٧٤.
❖ العسس هنا ليست بمعناها الحقيقي المتعلق بحماة الناس ليلا، بل تشير الى رجال يتخذون من الليل ستارا لاعمالهم السيئة، المتمثلة بالموت والخطف والاعتقال.
[٣٥] رواية تحت سماء الكلاب، صلاح صلاح، دار سطور، بغداد، ط٢، ٢٠١٥ :٩.
[٣٦] م.ن: ص.ن.
[٣٧] يُنطر: تحت سماء الكلاب: ٢٥... ٣٤- ٥٥، ٥٩.
❖ هذا خلاف ماورد في الرواية التسجيلية الوثائقية (في باطن الجحيم) لسلام ابراهيم، التي كان كاتبها جزءا من هذه المأساة، وعاش الألم ذاته مع الكورد وكان شاهدا عليها، إذ يؤكد أن النظام العراقي هو المسؤول عن القصف الكيمياوي، ولم تكن أية قوات ايرانية في المنطقة: ١٣٥. وخلافا لما ورد في كتاب تاريخ الاكراد الحديث، ديفيد ماكدوول، المصدر الذي يستشهد به الكاتب في ثنايا روايته، ص٥٣٩، وكتاب الهوية والامة في العراق، شيركو كرمانج: ٢٣٧.
[٣٨] تحت سماء الكلاب: ٧٧.
[٣٩] م. ن: ١١٧.
[٤٠] م. ن: ١١٨.

[٤١] م. ن: ن، ص.
[٤٢] م. ن: ١١٩.
[٤٣] م. ن: ١١٩.
❖ اصل كلمة كوردستان واستعمالها، تاريخ الاكراد الحديث، ص٣٩، وجدل الهويات، ص٥٦- ص٥٧، وكورد العراق: ٨- ٩.
[٤٤] تحت سماء الكلاب: ١٢٠.
[٤٥] م. ن: ١٢٠.
[٤٦] يُنظر: تحت سماء الكلاب: ١٢٣- ١٢٤، ١٥٧- ١٥٨. ومقالة الكورد في الثقافة العربية، حسن ناظم، الكوفة، السنة ٢، العدد٢، ربيع٢٠١٣: ١٥٧.
[٤٧] م .ن: ١٢٣.
[٤٨] م. ن: ٢٣٦... ٢٣٩.
[٤٩] رواية الضلع، حميد العقابي، دار الجمل، المانيا، ط١، ٢٠٠٧: ١٧٨ –١٧٩.
[٥٠] رواية الحياة لحظة، سلام ابراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠: ١٧٧ –١٧٨.
[٥١] ليل البلاد، جنان جاسم حلاوي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٢: ١٦٧-١٦٩.
[٥٢] معجم اللغة العربية المعاصر: ١٨١.

المصادر والمراجع

- الاثنية والدولة، فالح عبد الجبار وهاشم داود، ت: عبد الاله النعيمي، الفرات للتوزيع والنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٦.
- الامبروطورية الأمريكية والإغارة على العراق، محمد حسين هيكل، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٤.
- الايديولوجيا دفاتر فلسفية، محمد سبيلا وعبد السلام بنعد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦.
- الايديولوجيا، ديفيد هوكس، ت: إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، بدون طبعة، ٢٠٠٠.
- بلاد ما بين نهرين، هوشنك وزيري، دار نون، الاردن، ط١، ٢٠١٥.
- تاريخ الأكراد الحديث، ديفيد ماكدول، ت: راج الله محمد، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- تحت سماء الكلاب، صلاح صلاح، دار سطور، بغداد، ط٢، ٢٠١٥.
- التكرار مظاهره واسراره، عبد الرحمن الشهراني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، ١٩٨٣.
- تمثيلات الآخر، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- ثلاثاء الأحزان السعيدة، جاسم الرصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤.
- الحياة لحظة، سلام إبراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠.
- دولة كوردستان، بشتوان صادق، أربيل، بدون مطبعة، ط١، ٢٠١٣.
- رؤوس الحرية المكيسة، جاسم الرصيف، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- الرواية العراقية رصد الخراب العراقي في ازمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، سلام إبراهيم، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، العدد ٢، ٢٧ ديسمبر ٢٠١٢. http://www.dohainstitute.org/release/fd2aeb78-c10c-46b8-9c18-4db7337d8557
- الضلع، حميد العقابي، دار الجمل، المانيا، ط١، ٢٠٠٧.
- العراق، حنا بطاطو، ت: عفيف الرزاز، دار الحياة، القاهرة، الكتاب الأول، ٢٠١١.
- علم الاجتماع السياسي، فيليب برو، ت: محمد عرب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- القضية الكوردية، منذر الموصلي، دار المختار، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.
- كورد العراق، أوفيرا بيغيو، ت: عبد الرزاق عبد الله، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٤.
- الكورد في الثقافة العربية، حسن ناظم، الكوفة، السنة ٢، العدد ٢، ربيع ٢٠١٣.
- ليل البلاد، جنان جاسم حلاوي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.
- المجتمع والثقافة تحت أقدام الاحتلال، سلام عبود، منشورات الجمل، بيروت، ط١، ٢٠١٤.
- مدخل الى الايديولوجيات السياسية، أندرو هيود، ت: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، مصر، ط١، ٢٠١٢.
- المرئي واللامرئي في الأدب والسياسة، هادي العلوي، دار المدى، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣.
- المشكلة الكوردية في الشرق الأوسط، حامد محمود عيسى، مكتبة مدبولي، مصر، بدون طبعة، ١٩٩٢.
- معجم اللغة العربية المعاصر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مج١، ط١، ٢٠٠٨.
- النقد الروائي والايديولوجيا، حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- الهوية والأمة، شيركو كرمانج، ت: عوف عبد الرحمن عبد الله، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٥.